الزِيَارَةُ

مع أول تباشير الصباح وقبل أن يستيقظ حتى النور من نومه، أحكمت وضع ثيابها وهى تكحل عينيها بمرود خشبى لتسوى أهدابها الطويلة الناعسة، حزمت طعاما كثيرا فى صرة قماش، ودعت زوجها وأولادها بالدار ساعية نحو الخارج، هم أحد أطفالها الصغار أن يعدو وراءها لكى يتشبث بها كالعادة ليخرج معها، ولكن زوجها أسرع وأمسكه من خصره وهو يرفعه إلى صدره ويحتضنه ليثنيه عن ذلك متابعا إياها ببصره فى صمت دون أن يقول شيئا، سارت عبر طرقات القرية والناس يرمقونها بنظارت آسفة، وهمسات تتردد هنا وهناك، "إنها الزيارة"، لا يبدو عليها أنها قد لاحظت همسهم ونظاراتهم، كانت شاردة فمضت فى طريقها دون توقف حتى بدأت بيوت القرية تختفى، ويظهر الخلاء، ومن بعيد لاحت لها مقابر القرية فتبسمت لأول مرة منذ الصباح، بدا أنها تعرف طريقها جيدا عبر القبور حتى وصلت إلى أحد القبور المسواة بالأرض، إلا من قطعة بلاط ملقاة عليه تعرفها المراة جيدا، فهى قد وضعتها بيدها منذ زمن، افترشت المرأة الأرض وهى تفتح صرتها مفرقة بين الطعام الذى تداخل وهى تقول فى صوت لا يسمعه إلا من يسترق السمع لها :

- السلام عليكم يا جودة.

صمتت لحظات قبل أن تقول فى حزن عميق:

- اعلم انك متضايق منى لأنى لم أتِ لك بالامس، أنا آسفة يا جودة حقك علىَّ، أخوك عوض أنت تعرفه، لقد رويت لك عنه مرارا، إنه شقى ومؤذٍ،

كان يلعب فى ماء الترعة طوال النهار فاصيب بالبرد وسخن جسده واصابته الحمى، ظللت طوال اليوم أداويه بكمادات الماء البارد والحساء الساخن، شقى ويشقينى معه، يا ليته كان مثلك يا جودة هذا ما أخرنى عنك، هل لازلت متضايقا يا جودة، اعلم انك طيب وتنسى وتسامح بسرعة، هذا هو ابنى وقد ربيتك جيدا.

أخرجت قطعة جبن تلفها فى فطيرة، وهى تمدها فى الهواء قائلة:

- هيا إليك إفطارك؟

ظلت يدها معلقة فى الهواء وهى تردف:

- لا يا جودة حرام، النعمة لا يقال لها لا، لا يوجد شئ اسمه أحبه وأكرهه فى نعمة الله، قل الجبن لا يحبنى، اعلم انك كنت تريد أن احضر لحما وأرزا معمرا، ماذا؟! لا تريد أن تاكل، لمَ يا بنى، حسنا غدا سوف آتى لك بما تريد، فقط لا تحزن، أنت تعلم أنى لا أقوى على حزنك.

عادت تربط صرتها وهى تكمل قولها وإن بدا صوتها يعلو قليلا:
- أحوال أبوك لا تعجبنى هذه الايام يا جودة؛ يسهر كثيرا خارج المنزل ويذهب إلى مقهى عزوز، انت تعلم ان هذا الخبيث عزوز يبيع البوظة، ماذا؟!البوظة والعياذ بالله خمر نشربها فقط حين المرض، وهو ليس مريضا فلما يشربها؟! إنى أتشمم فم والدك كل يوم وأنا أعرف أنه شربها، إنى لا أخشى إلا على صحته، ثم أليس أخوتك أولى بنقود البوظة، طيب يشرب سجائر بدلا منها!

صمتت قليلا وهى تسوى التراب حول القبر مردفة:

- هل تعلم؟! سناء ابنة عمتك قد جاءها عريس، أى والله عريس، تصور هذه السوداء القبيحة قد جاءها العدل والنصيب أخيرا، ربنا كبير، أمها سيدة

طيبة وتستحق الخير، العريس ليس غريبا، إنه محمد ابن عم سلطان، أنهى لتوه الجيش وابتنى غرفتين فوق سطح دارهم وسيدخل بها بعد شهرين، لأ اعلم لماذا هذا البطء، شهران وقت كثير، أليس كذلك يا جودة؟!

نظرت حولها لترى إن كان أحد يسمعهما أم لا قبل أن تقول:

- قل لى يا جودة ما أخبار العجرودى، ألا تعرفه، إنه الرجل العجوز المدفون إلى يمينك، ما حسابه، لقد كان رجلا سيئا ولا يصلى، هل يعذب؟ هل تسمع الملائكة وهى تحاسبه؟ أم أن الله قد غفر له، لو كنت تضايق يا جودة من وجودك إلى جواره، قل لى وأنا أجعل أبوك ينقلك من جواره، تذهب إلى جوار الشيخ إبراهيم إمام الجامع، إنه رجل طيب وأظن أنه يتنعم الآن، ربنا يعطينا جميعا، ادعُ لى يا جودة ادع يا جودة.

بدا للحظة بأنها ستهم بالقيام قبل أن تقوم بإلغاء الفكرة مكلمة:

- هل أضحكك على أصدقائك الأنذال: شكرى و عمر أتوا ذات يوم ببيض مسلوق وباعوه فى السوق على أنه بيض طازج، وخدعونى فاشتريت منهم خمس بيضات لكى أصنع منهم عجة، وما إن كسرتها فى الطبق حتى اكتشفت الخدعة وكانت فضيحة، يومها قلت لهم:

- أتخدعوننى وأنا أم صاحبكم جودة؟!

بكى عمر يومها، الولد شكرى ماكر، لكن عمر طيب، ربنا يكرمه، ولكنى تضايقت منهم، فى أول يومين كانوا يأتون معى لزيارتك، وبعد ذلك أخذوا يتهربون منى، شكرى تعتزم أمه إدخاله المدرسة السنة القادمة، وتقول إن ابنى سيصبح مهندسا للرى مثل خاله، قلت لها إن جودة دخل المدرسة ليصبح طبيبا، أليس كذلك يا جودة كنت ستصبح طبيبا؟! وسوف تداوى أى مرض تصاب به ولن تموت.

قامت واقفة لتنفض ثيابها وهى تحمل صرتها وإن لم تفكر فى المغادرة مردفة:

- لا أظن أن هناك الكثير مما يمكن أن تسمعه، فالقرية صغيرة، كما تعلم، سوى أن أميمة زوجة محسن الفولى قد أنجبت بنتا بالأمس، بنت مثل القمر فى تمامه، خسارة يا جودة كان بودى حجزها لك، ولكن محسن الفولى متكبر، ويريد أن ينتقل بأسرته إلى المدينة ليعيش هناك، وأنت تعلم يا جودة أنى لا أثق فى تربية بنات المدن، سرحان الذى يسكن على أطراف القرية سرقوا حمارته بالأمس، تصور هذا الرجل حظه سئ مع اللصوص، منذ شهر سرقوا حذاءه من أمام الجامع، وبالأمس سرقوا حمارته، الحذاء كان جلدا أصليا، اشتراه من المدينة، كان يغرى بالسرقة، لكن الحمارة يحتاجها، حرام.

مر بها رجل يمسك بطفلته الصغيرة متحسسا طريقه وسط المقابر قبل أن يشير لها بيده قائلا:
- السلام عليكم يا ام جودة.
- وعليكم السلام يا عبد القادر,
- ما أخبار جودة اليوم؟
- بخير فى أحسن حال.
- بلغيه منى السلام، والنبى.
انحنت المراة على القبر وهى تجهز نفسها للرحيل قائلة:
- عمك عبد القادر يرسل لك السلام يا جودة اتركك بعافية وأراك إن شاء الله غدا.
ثم اعتدلت واقفة وهى تولى القبر ظهرها عائدة إلى القرية وبيدها صرتها والطفلة تهمس فى أذن أبيها :
- هل عمتى عزة مجنونة يا أبى؟ إنها تتكلم مع ميت؟!
رد عليها الرجل وهو يرمق المرأة فى هدوء:
- لا يا ابنتي، ليست مجنونة، لكنها لو آمنت فعلا بأن ابنها قد مات ربما جنت

بالفعل، ومن يدري، ربما تسمعه مثلما يسمعنا هو، ربما ما تفعله هو العقل بنفسه.

حسام الخطيب

obeikan.com